الإرهاب العبثى، والحياة! (*)

أحسب أن "العبثية" مرض، يصيب الأفراد وقد يصيب جماعات.. تشيع العبثية حين يضيع الخيط، ويشيع اليأس، فتفقد النفس الآدمية القدرة على "الرؤية" و "المعنى"، وتفقد معها القدرة على الاهتداء إلى قانون السببية، وهو كونى أزلى، قضى بأن ترتبط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، ومن ثم تتسم تصرفاتها وردود أفعالها فى هذا التيه بالعمى الحيثى، وبالعبثية العدمية، تضرب ضربات عشوائية، أو تترك الزمام لاختلاجات غير إرادية، كانتفاضات المصاب بالحمى، تتفرق أشتاتاً على غير هدى، وعلى غير معنى، وعلى غير هدف ولا غاية!

العبث لا ينطوى على هدف صحيح مرئى، ولا يترتب على سلوكه نتيجة يرجوها العابث، ذلك أن رباط الفعل بمقصود ما ـ مقطوع فى العابث، وتكون نتائج عبثه خطأً أو قدراً عارضاً أو خبط عشواء أو إضاعة للوقت وربما الحياة نفسها فى الخواء العدمى !

أخطر ما فى هذه العبثية العدمية، حين تختلط بالتطرف، فيتحولان معاً إلى قوة عمياء تعيث فى الأرض فساداً وهلاك وإهلاكاً، وتستخف بكل القيم وتقتل الحياة وتعمل التدمير والتخريب فى نعم الله تعالى التى لم يخلقها أو يمنحها سبحانه للخلائق عبثاً!

---

* ٢٠٠٦/٥/١١

الحياة التى يستخف بها الإرهاب ويبيد بلا معنى حيوات أبرياء، لم يخلقها الخالق المبدع باطلاً ولا لهواً ولا لعباً ولا عبثاً، فيقول تعالت حكمته:

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ❖ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران ١٩٠، ١٩١)

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ❖ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ" (الأنبياء ١٦ ـ ١٧)

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ❖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" (الدخان ٣٨، ٣٩)

"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون: ١٥).

من يتأمل هذه الآيات بفهم ووعى، يدرك أن الدين يريدنا أن نرى الحياة بعين الجد والعقل وأن يكون إسهامنا فيها واعياً جاداً لمجد الكل.. فى احترام الحياة فى أنفسنا وفى الآخرين وفى كل ما فى الكون الذى لم يخلقه الله تعالى عبثاً ولا باطلاً ولا لهواً ولا لعباً.. أن لا ننحصر فى جزئيتنا أو ضآلتنا ومحدودية أعمارنا ونعمى عن نصيبنا فى عمارة الكون!.

ومن المفارقات أن يغيب هذا الجوهر المصفىّ للدين عن شاردين يحسبون الشرود والعبث العدمى من الدين، ويمعنون فى العبثية العدمية فيهدرون الحياة فى أبرياء وفى أنفسهم!!.. وأكثر من هذا شروداً لوى الدين واعتساف ما ليس فيه لبث هذه العبثية المناقضة للدين فى نفوس افتقدت البصيرة، فلم تعد تميز بين قيمة الحياة التى لم يخلقها الخالق عز وجل لعباً ولا لهواً ولا عبثاً، وبين هذا الشرود

العابث المجنون الذى يطارد الحياة فى النفس وفى الآخرين ودون معنى ولاغاية ولا سبب يفهمه العقلاء أو يسيغه الدين نفسه!

لا يقع فى هذه العبثية المناقضة للعقل والدين، إلاّ "حالة" مرضية نجح خبثاء فى إشاعة وبث التعصب فيها، واستغلال الجهل وقلة التبصر فى سد طريق العقل والفهم أمامها لتكون فريسةً سهلةً طيعة لأعمال عبثية عدمية حمقاء يدفع فيها المخدوعون أرواحهم ذاتها ثمن لهذا الجموح المجنون الذى يتوارى الصانعون له المحرضون عليه بعيد عما يمس حيواتهم هم أو يعرضهم للمساءلة عما يخططون ويدبرون ويحرضون!

المتدين الحق، لا يعبث ويدمر فى الحياة وأرواح الأحياء!.. يفهم من دينه أن الله تعالى أرادنا أن نعلم قدسية هذه الحياة التى لم يخلقها عبثاً ولا لعباً.. أن نحترمها فى أنفسنا وفى الآخرين.. قد خلقها سبحانه ليرى أينا أحسن عملاً وعمارةً لها، لا ليرى أينا أجرأ عبثاً وشروداً عن معناها وتدميراً فيها!.. ليرى كيف نحفظها فى أنفسنا وفى الآخرين، لا ليرى كيف نعمل فيها التقتيل الشارد العبثى إهلاكاً لأرواحنا وأرواح بريئة لا جريرة لها ولا حجة عليها ولا معنى لاستباحتها وسفكها!

من اللافت المسترعى للفهم والتأمل أن القرآن المجيد حين نص على قدسية الروح ربط احترامها بالحياة بعامة، فأوماً إلى أن قتلها بغير حق قتل للناس جميعا وإحياءها إحياء للناس جميعا.. (المائدة ٣٢).. هذا المعنى ملحوظ حتى فى القصاص الذى عنى الكتاب المجيد بأن يشير إلى أن فيه حياة. الحياة صناعة ربانية، لا يجوز إهدارها ولا حتى فى النفس.. وفى حديث متكرر لرسول القرآن عليه السلام أن جزاء المنتحر نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً.. الحياة فى الكون وفى الأحياء أعزّ من أن تكون عبثاً بلا معنى وإهداراً وتقتيلاً بلا عقل!

تمكن هذه العبثية فى الشباب بخاصة، يعبر عن اضطراب واختلال مرضى فى الشخصية، ينبغى أن يلقى تشخيصاً عميقاً وعلاجاً عريضاً.. فليس يجدى حمل المراهق أو الشاب الحامل لهذه الجرثومة على الاقتناع الفكرى المستوعب لمعنى الحياة والدين المدرك لخبرات وتجارب الماضى والحاضر من حياته المحدودة أو من حياة الآخرين !

علاج هذه "الحالات" المرضية،لا يفلح ما لم يخرجها من وهدة السقوط واليأس، ومالم يعد وصل أصحابها بمعنى الحياة وبأن قيمة الإنسان - وقد خلقه الله فيها - هى بقدر ما يعمل عملاً عاقلاً جاداً موصول السبب والغاية لا بمقدار ما يشرد ويعبث ويعمل التدمير والخراب فى الحياة وفى عمارة ونواميس الكون!.. ما لم يدرك أن هذه العمارة ليست فى الحمق والخواء المبعثر الخالى من القيمة والمعنى، وإنما هى عمل جاد هاديه العقل وقاعدته العلم وقوامه الإخلاص والولاء لله عز وجل.. هذا الولاء الذى يشد المخلوق للخالق ويصله بالمعنى الكلى الجامع صلة متيقظة إلى حكمة الخلق وقيمة الإنسان ذاته فى عمار هذه الحياة إلى ما شاء الله!